حضارة العرب في مبانيها

مباني العرب في الجاهلية

لقد كانت الممالك العربية في زمن سطوتها وابان عظمتها معمورةً بالأبنية الباذخة والصروح الشامخة والمعاقل الشهيرة والقصور الرفيعة والحصون المنيعة والآثار الفاخرة ، مما دلّ على حضارتهم في ذلك العهد وتقدمهم نحو العمران الذي كان خالة كل حضري يسكن البلدان الواسعة ويملك زمامها ، ومطمحاً لكل دولة تريد توسيع نطاقها وكيانها .

فمن أبنية الجاهليـــة التي دلت آثارها على سمو افكار مشيّدها ، وحضارة عصر مالكها ، أبنيـــة ثمود في الحِجر[1] ،

---

١ الحِجر قرية صغيرة الى جنوبي دومة الجنـــدل على جبال يقال لها الاثالب . والحجر هي المعروفة بمدائن صالح في وادي القرى بطريق الحج الى مكة . وبها كانت منازل ثمود . وتنزلها حجّاج الشام . وفيها قبر هاجر ام اسمعيل .

واطلالها[1] وهي بعض بقايا منقوشة في الصخر تُعرف بقبر الباشا والقلعة والبرج وقصر البنت. ثم حصن بركة[2].

وقلاع طسم وجديس وهي المُشَقَّر[3] والمُمَنَّق[4] وشموس.

---

١ وجد بعض المستشرقين على اطلال الحجر نقوشاً بالحرف النبطي وتاريخه حوالى الميلاد وقرأوها فاذا كلها تبركات منقوشة على القبور. وفيما يلي مثال منها:

«هذا القبر بنته كُسمكُم بنت وائلة بنت حرم، وكلية ابنتها، لانفسهنّ وذريتهنّ في شهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محبّ شعبه؛ فمن ذو الشرى وعرشهُ واللاّت وعمدد ومنوت وقيس تلعن من يبيع هذا القبر او يشتريه او يرهنهُ او يخرج منه جثةً او عضواً او يدفن فيه احداً غير كمكم وابنتها وذريتها. ومن يخالف ما كُتب فيه فيلعنهُ ذو الشرى وهُبَل ومنوت خمس امنات. ويغرّم الساحر غرامة مقدارها الف درهم حارثي. الاّ من كان بيده تصريح من كمكم او كلية ابنتها. صنع وهب اللات بن عبد عبادة.» آه.

٢ حصن بركة ويُعرف ببركة خُلَيص بين مكة والمدينة. قال ابن بطوطة: بركة خليص هي في منبسط من الارض كثيرة حدائق النخل لها حصن متين في قمة جبل وفيها عين فوّارة وقد سُرّيت باخاديد الى الضياع ويقام هناك سوق.

٣ قال ياقوت: المشقر قلعة من بناء طسم لها ذكر في ايام العرب. وجاء في لسان العرب: انه حصن قديم بالبحرين.

٤ ذكر ياقوت ان المنق هو اعظم قصور اليمامة من بناء طسم على اكمة مرتفعة. والشموس قصر آخر فخم من بناء جديس محكم البنيان. وكأن تلك البلاد بعد ان باد اهلها هُجرت ثم عثروا على انقاضها.

وقصور اليمن مثل : بَيْتُون[1] وريـــدة[2] وغمدان[3] .

---

١ بيتون اسم حصن عظيم كان باليمن قرب صنعاء وهو من بناء بعض التبابعة ولهُ ذكر في اخبار حِمير واشعارهم .

وكان بيتون من جملة الحصون التي هدمها ملك الحبشة .

٢ ريدة او تلغم قصر باليمن . قال الهمذاني : قصر ريدة من اقدم قصور اليمن . وهو قصر تلغم وليس من قصور اليمن في جبله بئر سوى تلغم وماؤها اعظم مياه اليمن واغزرها . قال : وحدثني بعض اهله انه وجد حجراً في تلغم مكتوباً عليه : بناه بريم واصبح هذا القصر بعد الاسلام داراً للعلويين .

٣ غمدان قصر بصنعاء اليمن بناه اليشرح بن الحارث احد ملوكها وجعلهُ على اربعة اوجه : احمر وابيض واصفر واخضر ، وجعل على كل ركن من اركانهِ تمثال اسد من اعظم ما يكون من الاسُد ، فكانت الريح اذا هبت الى ناحية تمثال من تلك التماثيل دخلت في جوفهِ فيسمع لهُ زئير كزئير السباع . وكان يشتمل على عشرين طبقة غرفاً بعضها فوق بعض بين كل طبقتين عشرة اذرع . وكانت غرفهُ تسمى المحاريب وتحتوي على ما لا يوصف من الزخارف الجميلة وجعل غرفة الرأس العليا مجلساً بناها بالرخام الملون وجعل سقفها رخامة واحدة . وكان لها اربعـــة ابواب قبالة الصبا والدبور والشمال والجنوب ، وعند كل باب منها تمثال من نحاس اذا هبت الريح زأر . وكان فيها مقيل من الساج والابنوس . وفيها ستور لها اجراس اذا ضربت الريح تلك الستور تسمع اصوات الاجراس عن بعـــد . وكان يأمر بالمصابيح فتسرج في ذلك القصر فكان سائرهُ يلمع كما يلمع البرق ، فاذا اشرف عليه انسان من بعض الطرق ظنهُ برقاً ولا يعلم ان ذلك ضوء المصابيح . وظل هذا القصر باقياً الى ان هدم في ايام الخليفة عثمان بن عفان كما قال المسعودي وشارح القاموس وغيرهما .

والخورنق[1] والسدير[2] وسلسلحين[3] وشكر[4] والزوراء[5] وتاعط[6]

---

١ قصر بالعراق . ولم تعيّن الجهة التي بها هـذا القصر . قال ابن السكيت وغيره انه قصر بظهر الحيرة بالعراق بناهُ سنمار وهو رجل رومي للنعمان الاكبر الاعور السائح بن امرىء القيس في عشرين سنة ، ولما فرغ من بنائهِ تعجبوا منه فقال: لو علمت انكم توفوني اجري لعملتهُ يدور مع الشمس . فقال لهُ النعمان: انك لتقدر على ما هو افضل منه . ثم امر بهِ فالقي من رأس الخورنق فهلك فضربت العرب بجزائهِ المثل .

٢ السدير قصر بالحيرة من منازل آل المنذر وابنيتهم . كان للنعمان الاعور رب الخورنق . وقد ذكرتهُ العرب في اشعارها وضربت بهِ الامثال في اخبارها . اما « بارق » فهو ماء بالعراق وهو الحد الفاصل بين القادسيـــة والبصرة وهو من اعمال الكوفة كان فيه قصر حصين ينسب اليه .

٣ سلحين حصن عظيم باليمن . وجاء في القاموس : سلحـــين حصن كان باليمن بني في ثمانين سنة . ولهُ ذكر في اشعار حمير واخبارها . وقد تقدم قول الحميري يذكر ما دخل على حمير من الذل :

ابعد بيغون لا عينٌ ولا اثر ... وبعد سلحين يبني الناس ابياتا

٤ قصرٌ باليمن ايضاً درست آثارهُ .

٥ قصر المنذر بن امرىء القيس في الحيرة الذي اشار النابغة الذبياني اليهِ بقولهِ :

وتسقى اذا ما شئتَ غير مصرَّدٍ ... « بزوراء » في حافاتها المسك كارع

٦ هو محفد مؤلف من عدة قصور بلي غمدان في العظمة والشهرة . قال الهمذاني في وصفهِ انهُ مصنعة بيضاء مدورة منقطعة في رأس جبل ثنين بهمذان .

وقال الهمذاني بعد ان ذكر ما فيها من القصور : وما فيها قصرٌ الاَّ وتحتهُ

وصرواح[1] ومارد والأبلق الفرد[2] وقصور عديدة غيرها كانت باليمن ككعبة نجران[3] وحصن العنبر[4] وحصني الزباء[5]

كريف (صهريج) للماء نجوف في الصخر فيتلقى الماء الذي ينزل من السطح . وفيه الاسطوانات العظيمة طول كل واحدة نيف وعشرون ذراعاً لا يحضن الواحدة منها الا رجلان (فهو اشبه بما ينقره اهل التمدن الحديث من الانفاق في الجبال لمرور المياه او قطر السكك الحديدية) .

١ قصر عظيم من اقدم ابنية اليمن ، ما بين صنعاء ومأرب ، ذهب قديماً ، ولهُ ذكر في اشعارهم .

٢ هما حصنان للسموأل بن عادياء اليهودي الغسّاني . قصدتها الزبّاء ملكة الجزيرة فعجزت عنها . وكان مارد في دومة الجندل مبنياً من حجارة سود . والابلق الفرد كان مشرفاً على تياء بين الحجاز والشام فيه آثار ابنية من لبن لا تدلُّ على ما يحكى عنه من العظمة والحصانة وهو خراب الآن . وانما قيل لهُ الابلق لانهُ كان في بنائهِ بياض وحمرة . وفي هذا الحصن تحصّن السموأل لما اتى الملك الغساني ليأخذ منه دروع امرىء القيس .

٣ كعبة نجران كانت قبة عظيمة في اليمن اطلق العرب عليها اسم كعبة نجران لانهم كانوا يقصدون زيارتها في نجران كما يقصدون زيارة الكعبة ويحجون اليها .

٤ كان هذا الحصن منيعاً بارض العراق بناه الملك امرؤ القيس بن النعمان .

٥ هما حصنان متقابلان بنتهما الزباء ملكة تدمر على الفرات وجمعت بينهما بنفق يمر تحت النهر اعدّتهُ لخوفٍ يحلُّ بها ، وكانت تسكن في احد حصنيها اكثر زمنها فاذا جاء الصيف رحلت الى تدمر وسكنت في الرواق الاعظم في قصرها هناك . ولم تزل بقايا الرواق الاعظم في مدينة تدمر تحفة الفن البيزنطي وقبلة السيّاح البحّاثين الى يومنا هذا .

وقصر حارب وقصر السويداء[1] وقصور بني غسان في الشام وضواحيها كقسطل البلقاء الذي يقول فيه كثير عزة :

سقى الله حيّاً بالموقّر دارهم
الى قسطل البلقاء ذات المحاربِ

واذرُح[2] من اعمال الشراة والجرباء بجانبها وصرح الغدير والقصر الابيض[3] والقلعة الزرقاء وقصر المشتى وقصر الفضاء وقصر منار وقصر السويداء وحصن أبْيَن[4] وغيرها من الأبنية الباذخة التي عبرت عليها السنون ففيرت جدتها ودكت معالمها فأصبحت أطلالاً يبحث عنها المستشرقون، وآخر من نقّب وبحث عن آثارها الاستاذ « دوسو الفرنساوي » فقد جال في جبال حوران ووعورها

---

١ حارب والسويدا صرحان بناهما النعمان بن عمرو في ارض البلقاء بضواحي دمشق .

٢ اذرُح بلد في اطراف الشام من اعمال الشراة ثم في نواحي البلقاء وعمان ومجاورة لارض الحجاز . ولعلّها تصحيف اذرع المسماة اذرعات .

٣ القصر الابيض هو قصر من قصور الحيرة ذكر في الفتوح انه كان بالرقّة وجد على احد جدرانه مكتوباً « حضر عبد الله بن عبد الله . ولامر ما كتمت نفسي وغيّبت بين الاسماء اسمي في سنة ٥٠٣ » ويقول: سبحان من نحلم عن عقوبة اهل الظلم والجبرية. اخوتي ، ما اذلّ الغريب وان كان في صيانة ، واشجى قلب المفارق وان كان آمناً من الخيانة ، وامور الدنيا عجيبة والاعمار فيها قريبة .

٤ أبْيَن مخلاف باليمن منه عدن . وفيه حصون وقلاع وبلدان . يقال سمي بأبين بن زهير بن أيمن بن حمير بن سبا .

في اللجا والحرّاء والرحبة وجبل الصفا واكتشف كثيراً من الآثار واستدل منها على خط دفاع كان في أطراف حوران يفصل بينها وبين البادية. وهذا الخط كان مؤلفاً من عدة حصون من جملتها القصر الابيض والنمارة ودير الكهف والقلعة الزرقاء. وقد شاهد أنقاضها فرأى القصر الأبيض مبنياً في منبسط من الارض مربع الشكل حوله سور فيه برجٌ عالٍ. وكان يمتاز عن قصر النمارة وغيره بنقوش جميلة مشتملة على صور طيور غريبة وخيول وفهود وأسود وبقر وأفيال حتى الأسماك. وكثير غير هذه من الآثار التي أبدتها أيضاً الاكتشافات الحديثة كالصياصي والصروح والمعاقل والحصون والمحافد والآطام والبروج والمدائن والقصور والقلاع والمصانع[1] منها مصنعة وحاظة[2] وقلعة خدد[3]

---

١ المصانع جمع مصنع، وهي المباني من القصور والآثار والحصون وغيرها.

٢ مصنعة وحاظة هي قلعة واسمها سباع تشابه ناعصاً في القصور والكنائف (الصهاريج) وكريفها اسمه درداع مساحته ٦٠٠ ذراع في مثلها.

٣ قلعة خدد معاندة لقلعة وحاظة بينهما ساعة من نهار وفيها قصر عظيم يقصر عنه الوصف. وللقلعة طريقان على باب كل طريق ماء. فالطريق الجنوبي عليه اكريف يسمّى الوفيت منقور في الصخر الاسود عمقه في الارض خمسون ذراعاً وعرضه عشرون وطوله خمسون محجوز على جوانبه بجدار يمنع السقوط فيه. والماء الثاني من شمال الحصن على باب الحصن الثاني في جوبة (حفرة) من صفا كالبئر مطوي بالبلاط ودرج ينزل فيه من رأس الحصن بالسرج في الليل والنهار على مسيرة ساعة حتى يأتي الى الماء. ولا يعلم من يكون في اسفل البئر من هو فوقه.

ولا سيما ما وُجد في اليمن مهد الملوك الاولين من آثار المباني الرفيعة والاعمدة الضخمة والتماثيل الجميلة والتحف البرونزية والصور الرائعة في النقش البارز التي ينمُّ إحكام صنعها عن حضارة بلاد العرب القديمة فضلاً عن تقدمهم في الهندسة وفن العمارة ومهارة البناء من قطع الجبال كما قطعوا باب عدن[1] وبينون[2] وحصن غراب[3] مما دل على ان العرب كانوا أحذق الامم في الصناعات وأمهرهم في البناء[4]. وقد نقل الهمذاني صاحب

---

١ باب عدن هو شق في جبل محيط بموضع عدن في ساحل لم يكن لهُ طريق الى البر الاّ للرجل الواحد اذا ركب ظهر الجبل، فقطعوا باباً من الجبل في عرضه حتى سلكتهُ الدواب والحمائل وغيرها .

٢ بينون ايضاً اسم جبل قطعهُ بعض ملوك حمير حتى اخرج منه سبيلاً من بلد وراءهُ الى ارض بينون .

٣ هو بقية قلعة منحوتة في الصخر عليها نقش بالمسند لفاتح اليمن الحبشي ذكر فيه خبر فتحه .

٤ وكان سكان جنوب الجزيرة الاقدمون من مَهَرة البنائين . وعمائرهم الشامخة تدل على تقدم فن البناء عندهم . فقد نحتوا كتلاً من الرخام نحتاً بديعاً وركبوا بعضها فوق بعض بمهارة ودقة بحيث يخيَّل للناظرين اليها انها كتلة واحدة، ولم يكونوا يستعملون الاسمنت ، ولكنهم كانوا ينحتون في كتل الرخام تجاويف ثم يضمون بعضها الى بعض بدقة واحكام تام بحيث يتعذر على المرء ان يُدخل ابرةً بين هذه الكتل الحجرية التي تبدو كأنها حديثة الصنعة . واما الاعمدة فكانت مربعة الشكل ولكلٍّ منها في اعلاهُ واسفله وتدٌ بارز بحيث يمكن ادخاله في تجويفٍ خاص به من كلا الطرفين ، ثم يصب عليه معدن الرصاص المصهور بدلاً من الاسمنت .

كتاب جزيرة العرب و كتاب الاكليل « الذي هو أجمع كتاب في وصف محافد اليمن ودفائنها ومساندها والآثار الحميرية كسد مأرب[1] » ما شاهده من انقاض تلك القصور وأيد كلامه مؤرخو الفرنجة كأرنو وهالوي وغلازر النمساوي الذين شاهدوا نظيره تلك الانقاض فوجدوا ما كتبه عنها صحيحاً وما سرده عنها صادقاً .

---

١ هو اعظم سدود بلاد العرب باليمن واشهرها . والسدود جدران ضخمة كانوا يقيمونها في عرض الاودية لحجز السيول ورفع المياه لري الارضين المرتفعة كما يفعل اهل التمدن الحديث في بناء الخزانات ، كخزان اصوان وخزان اسيوط بمصر ، وانما عمد العرب الى بنائها لقلة المياه في بلادهم مع رغبتهم في احياء زراعتها فلم يدعوا وادياً يمكن استثمار جانبيه بالماء الا حجزوا سيله بسدٍّ فتكاثرت السدود بتكاثر الاودية حتى تجاوزت المئات . وكانوا يسمون كل سد باسم خاصّ بهِ او بالاضافة الى بلده كسد مأرب هذا .

المساجد والجوامع الاسلامية

ومن المباني الفخمة التي تدلُّ على حضارة وعمران العالم العربي في الشرق المعابد والمساجد والجوامع العديدة التي رمَّمها وشيَّدها ملوك الجاهلية والاسلام لاقامة الصلاة فيها وتتميم الفروض الدينيَّة في كل بلدٍ نزلوه وانتشرت عباداتهم فيه .

واشهر هذه الاماكن : « مكَّة » وتسمَّى ام القرى — والبَلَد الحَرام — والبلد الأمين — وامّ الكورة — والمشرَّفة . ويقال لها ايضاً بكَّة بالباء على البدل . وقيل بالباء البيت وبطن مكة . وبالميم ما حول البيت . وهي مهد الديانة الاسلاميَّة تقع في قسم الحجاز الجنوبي . ومرفأها جدَّة على البحر الاحمر . ومسافة البعد بينهما ٨٠ كيلومتراً . ومكة غير مسوَّرة ولكنها محميَّة بثلاث قلاع قويَّة . وهي ممتدَّة في وادٍ قاحل على مسافة ٢٥٠٠ متر طولاً و٥٠٠ او الف متر عرضاً وتحيط بها من كل الجهات جبال وآكام جرداء علوها من ٨٠ الى ٣٥٠ متراً ، حرّها شديد وهواؤها جاف وتربتها ناشفة . وماء مكة يردها من جبالٍ في شرقيها بواسطة قناة بنتها زبيدة زوجة هارون الرشيد . وطول هذه القناة ٤٠ كيلومتراً .

المسجد الحرام : أو الحَرَم الشريف في وسط مكة . في دوائرهِ الاربع قبابٌ على اعمدة من المرمر والحجر النحت . بناؤهُ متين على سبع مآذن ، صحنهُ كبير واسع طولهُ ٤٠٤ اذرع وعرضه ٣٠٤ اذرع . وله ثلاث بلاطات محدقة بهِ من جهاتهِ كلها ومنتظم بعضها ببعض . فوقها سماونها مذهبة وحافاتها على عُمُد رخام بيض عددها في طوله من الشرق الى الغرب مع وجه الصحن ٥٠ عموداً وفي عرضهِ ٣٠ عموداً بين كل عمودين قدر عشرة اذرع . وجملة عمد المسجد ٣٣٤ عموداً طول كل عمود منها ١٠ اذرع ودورهُ ٣ اذرع . والمذهبة من رؤوس العمد ٣٢٠ رأساً . وسور المسجد كله من داخلهِ مزخرف بالفسيفساء وابوابهُ على عمد رخام وهي ٢٣ باباً لا غلق عليها ، يصعد عليها في ادراج عديدة .

الكعبة : او بيت الله الحرام . بناء بوسط المسجد مربع الشكل تقريباً طولهُ اثنا عشر متراً في عشرة امتار وعشرة سنتيمترات عرضاً فضلاً عن عرض الشاذوران « اي الجدار المحيط بالبيت » وارتفاعهُ ١٥ متراً وهو مبني من حجارة الجص الكبار الصمّاء الزرقاء الغير المنحوتة ، ويستدير بهِ من اسفلهِ

الشاذوران كدرجة سلّم . وباب الكعبة مرتفع عن الارض متر ين . وعتبته من الفضة وكذلك قفل الباب . وتحت العتبة العليا عتبة مذهبة . ومصراعا الباب من ساج « شجر هندي أسود لا تكاد الارض تبليه » غليظ مصفّح ظاهره بالذهب وباطنه بالفضة . يُصعد اليه بدرج من خشب مصفح بالفضة ويدخل منه الى جوف البيت . وهو غرفة واسعة مزينة جدرانها بخطوط عربية ومُنارة بمصابيح ذهبية . وبلاطها من رخام مرصوف بالفسيفساء . وفيها ثلاثة اعمدة من العود الماوردي قطر الواحد منها خمسة وعشرون سنتيمتراً . وبسقفه هدايا من الجواهر الثمينة معلقة من عهد الخلفاء . وحيطانه مكسوة بالاطلس الاحمر وبدائر جهاته الاربع حلق لربط الكسوة من الخارج حتى تنسدل على جهاته الاربع من الاعلى الى الاسفل . وهي من الحرير الاسود من نسج مصر تُحمل اليه كل عام .

وفي الركن الشرقي الجنوبي من الكعبة بارتفاع متر ونصف عن الارض :

الحجر الاسود : الذي يتوجب على الحجاج لثمه باحترام قبل طوافهم حوله ، وهو على رأس صخرتين من وجه الارض ، قد نحت من الصخر مقدار ما ادخل فيه الحجر وأشفت الصخرة الثالثة عليهما مثل اصبعين . والصخر املس مجزّع حالك السواد

في قدر الكعبة المعظمة . وهو مصون في صندوق من الفضة صنع له سنة ١٢٩٠، وفي هذا الصندوق فتحة مستديرة قطرها سبعة وعشرون سنتيمتراً يُرى منها الحجر ويُستلَم « اي يُلمس باليد او يقبّل » وقد صار مقعراً كطاسة الشرب « عن كتاب دليل الحج لمحمد صادق باشا ». ويزعمون ان الكعبة بناها آدم ابو البشر ثم ابرهيم بمساعدة ولده اسماعيل « وقد خُربت وجُددت مراراً ثم اعاد بناءَها ابن الزبير سنة ٦٨٤ ثم هدمتها الامطار سنة ١٠٣٩ فجدّدها السلطان مراد خان الرابع » وان الحجر الاسود وهبهُ الملاك جبرائيل لاسماعيل وكان حينئذٍ ناصع البياض وقد سوّد من كثرة آثام البشر الذين كانوا يقبّلونهُ . وكانت الكعبة قبل الاسلام معبداً للقبائل العربية التي كانت تضع فيها اصنامها البالغة ٣٦٠ صنماً فحطّمها النبي محمد وكرّسها معبداً للاله الواحد الحق .

المسجد النبوي : بلاطاتهُ في قبلتهِ معترضة من الشرق الى الغرب في كل صف من صفوف عمدها ١٧ عموداً ، ما بين كل عمودين منها فجوة كبيرة واسعة . والعمد التي في البلاطات القبليّة بيض مجصّصة شاظّة جدّاً . وسائر عُمُد المسجد رخام . والعمد المجصّصة على قواعد عظيمة مربعة ورؤوسها مذهبة عليها نجف منقشة مذهبة . ثم السماوات على النجف منقشة مذهبة

ايضاً . وحنايا المسجد كلها مما يلي الصحن مشدودة من جهاتها الاربع الى مناكب العمد بخشب مُنقش . وللمسجد ٣ منارات اثنتان للجنوب وواحدة للمشرق. وحيطان المسجد كلها من داخله مزخرفة بالرخام والذهب والفسيفساء اولها وآخرها . ولهُ ١٨ باباً عتبها مذهبة . وهي ابواب عظيمة لا غلق عليها . اربعة منها في الجنوب وسبعة في الشرق وسبعة في الغرب . وقاع المسجد كلهُ مفروش بالحصى وليس لهُ حصر . ووجه سور المسجد كله من خارج منقش بالكذان وكذلك الشرفات .

القبر النبوي : بشرقي المسجد في آخر مسقفه القبلي مما يلي الصحن بينه وبين السور الشرقي مثل ١٠ اذرع قد حظر حولهُ بحائط بينهُ وبين السقف مثل ٣ اذرع ولهُ ٦ اركان . وليس بازار رخام اكثر من قامة وما فوق القامة مخلّق بالخلوق. وعلى ظهر المسجد حذاء القبر حجر محجوز لئلا يمشى عليه .

قبو المحراب : وفيه دارات بعضها مذهبة وبعضها حمرية وسور . وتحت القبو صفة ذهب منقشة تحتها صفائح ذهب مثمنة فيها جزعة مثل جمجمة الصبي الصغير مسمّرة ثم تحتها الى الارض ازار رخام مخلّق بالخلوق .

المقصورة : وعن يمين المحراب باب يدخل منه الإمام ويخرج . وعن يساره باب صغير مشطرج قد سُدّ بعوارض من

حديد . وبين هذين البابين والمحراب مشى مسطح لطيف . ومن السور الغربي لاصقة بالمباب الى الفصل اللاحق بالسور الشرقي ومن هذا الفصل يصعد الى ظهر المسجد . وهي قد مختصرة العمل لها شرفات واربعة ابواب . وخارج المقصورة قريب منها عن يسار المحراب سَربٌ في الارض يهبط فيه على درج يفضي منها الى دار عمر بن الخطّاب .

المنبر : عن يمين المحراب في اول البلاط الثالث من المحراب في روضة مفروشة من الرخام محجوز حولها بهِ ولهُ درج . وهو مختصر ليس فيه من النقوش ودقة العمل ما في منابر هذا الزمان .

قصر الخضراء في دمشق الشام : هو اول قصر اعتنى ببنائه معاوية بن ابي سفيان اول خليفة اموي ، كانت جدرانهُ منزلة بالفسيفساء واعمدتهُ من رخام وذهب وسقوفهُ مزينة بالذهب المرصع بالجواهر . وكان فيه قاعة كبرى فخيمة كان يجلس فيها الخليفة وحولهُ سادات قريش وأميّة وامامهُ يقف الشعراء واصحاب الحاجات . وجعل فيه النافورات الجميلة العَديدة تخرج من قلبها المياه . وقد احاطهُ بحدائق غنّاء فجاء آيةً في الجمال والجلال . ودعي قصر الخلافة لان الخليفة جعلهُ مقراً لهُ ولمن يجيء بعدهُ .

الجامع الاموي في دمشق الشام : هو من اشهر جوامع الاسلام . انتدب لبنائه الوليد بن عبد الملك لكنه توفي قبل ان يتم بناؤه فاتمه من بعده اخوه سليمان ، وبالغ في التأنق فيه . جدرانه منزلة كلها بفصوص من الذهب المعروف بالفسيفساء ، وكان مبلغ النفقة فيه احد عشر الف دينار ومئتي الف دينار .

ذرعه في الطول من الشرق الى الغرب مئتا الف خطوة وهما ثلاث مئة ذراع ، وذرعه في السعة من القبلة الى الشمال مئة خطوة وخمس وثلاثون خطوة وهي مئتا ذراع . يتصل بقبليه ثلاث بلاطات مستطيلة من الشرق الى الغرب سعة كل بلاطة منها ثماني عشرة خطوة والخطوة ذراع ونصف . وقد قامت على ٦٨ عموداً منها اربع وخمسون سارية وثماني ارجل جصية تتخللها ، واثنتان مرخمتان ملصقتان بالجدار الذي يلي الصحن ، واربع ارجل مرخمة مرصعة بفصوص من الرخام ملوّنة . واعظم ما في هذا الجامع « قبة الرصاص » المتصلة بالمحراب . وهي عظيمة الاستدارة قد استقلّ بها هيكل عظيم هو غاربٌ لها يتصل من المحراب الى الصحن يشبهونها بنسر طائر كأنّ القبة رأسه ، والغارب جؤجؤه ، ونصف جدار البلاط عن يمين والنصف الثاني عن شمال جناحاه . وسعة هذا الغارب من جهة الصحن

ثلاثون خطوة . وعدد شمسيات الجامع الزجاجية المذهبة الملونة اربع وسبعون والبلاط المتصل بالصحن المحيط بالبلاطات من ثلاث جهات على اعمدة . وعلى تلك الاعمدة ابواب مقوسة تقلّها اعمدة صغار تطيف بالصحن كله .

وفي الصحن ثلاث قباب اكبرها في الجانب الغربي منه . وهي قائمة على ثمانية اعمدة من الرخام مستطيلة كالبرج مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة وعليها قبة رصاص كأنها التنور العظيم الاستدارة . وقبة اخرى صغيرة في وسط الصحن مجوفة مثمنة من رخام قد أُلصق ابدع الصاق قائمة على اربعة اعمدة صغار من الرخام وتحتها شباك حديد مستدير وفي وسطه انبوب من الصفر يرمي الماء علواً فيرتفع وينثني كأنه قضيب من لُجين .

والقبة الثالثة في الجانب الشرقي قائمة على ثمانية اعمدة على هيئة القبة الكبيرة . وكان هذا الجامع ظاهراً وباطناً منزلاً كلهُ بالفصوص المذهبة والزخارف البديعة الصنعة . وكان فيه ستماية سلسلة ذهبية لتعليق القناديل نقلها الخليفة عمر بن عبد العزيز الى بيت المال .

وقد ادركهُ الحريق مرتين فتهدَّم وجُدِّدَ وذهب اكثر رخامه .

واسلمُ ما فيه اليوم قبلته مع الثلاث قباب المتصلة بها . ومحرابه

من اعجب المحاريب الاسلامية حسناً وغرابة صنعة تتقد ذهباً كلها . وقد قامت في وسطه محاريب صغار متصلة بجداره تحفها سوريات مفتولات فتل الاسورة كأنها مخروطة لم يُرَ شيءٌ اجمل منها وبعضها احمر كأنه مرجان .

وكان في جانب هذا الجامع كنيسة للنصارى تُعرف بكنيسة مار يوحنا ، فهدمها الوليد وادخلها الجامع . وفي سنة ١٣١٠هـ اضطرمت النار فيه فالتهمت مـــا كان فيه من الآنية الذهبية والفضية ، وما كان من الطنافس الثمينة وغيرها مما قدر بالوف من الليرات الذهبية .

الجامع الاقصى في اورشليم : هو الذي بناه الخليفة عمر بن الخطاب في المحل الذي كان مبنياً فيه هيكل سليمان بن داود ملك اسرائيل . وهو من جوامع الاسلام الفخمة .

جامع القاهرة : الذي شيده احمد بن طولون في مصر .

الجامع الأزهر : الذي بناه في مصر جوهر بن عبد الله الرومي المغربي مولى المعز لدين الله العُبيدي سنة ٣٥٩ — ٣٦١هـ . وقد جعل هذا الجامع مدرسة للعلم في عهد العزيز بالله بن المعز الفاطمي . وكان الحاكم بن العزيز جعل فيه ثنوراً من الفضة وسبعة وعشرين قنديلاً من فضة ايضاً . وقد بنى فيه الملك الاشرف قانصوه الغوري مئذنة كبرى هي اعلى مآذن الأزهر . وفضلاً عن الاعمدة

القائم عليها صحن الجامع ففي الأزهر اليوم ٢٦ رواقاً و ١٥ حارة. ويدرّس فيه ١٩١ مدرساً. ويدرسُ فيه اكثر من ثمانية آلاف طالب.

أيا صوفيا: كنيسة رومية بيزنطية مركزها القسطنطينية بناها الملك الروماني يوستنيانوس. وهي تُعدُّ بفخامة بنائها من عجائب الارض. وقد سمّاها ايا صوفيا لانه اقامها ذكراً للحكمة الالهية، واتخذها السلطان الغازي محمد الثاني جامعاً يوم فتح القسطنطينية. اما هيئة البناء فعلى شكل مربع طولهُ ٧٥ متراً و ٦٤ سنتيمتراً ما خلا حنيّة الهيكل وعرضهُ سبعون متراً. وفوق هذا المربع القبة العظمى وقطرها عند فوهتها ٣١ متراً و ٤٨ سنتيمتراً. وهي مستندة الى اربع حنايا بتوازي سقفها. وقد بُني على الحنيتين اللتين على يمين الداخل وشماله شبه نصف قبة. وتحت نصف القبة نصف قبة اخرى من الجهتين. وهذان النصفان اصغر من النصفين الاعليين يستندان الى عمَد فينجم من ركوب هذه القباب على بعضها منظر لا عديل لهُ. وترى للبناء هيئة رشيقة غاية في الحسن والجمال. ويطيف بالبناء سورٌ فكأن هذه الكنيسة مدينة. وابوابها ثلاثة عشر باباً. ولها حرم هو نحو ميل، عليه باب كبير ولا يمنع احد من دخوله. وهو شبه مَشْور مسطح بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة. لها حائطان مرتفعان نحو ذراع

مصنوعان بالرخام المجزّع المنقوش . وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يوقدون سُرجها ويغلقون ابوابها . وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب وحلقتاه من الذهب الخالص .

المسجد الجامع : من اعظم آثار الامبراطورية العربية في المغرب هو المسجد الجامع الذي بناه في قرطبة بالاندلس عبد الرحمن الاول لاشتهاره :

١ — بأذنته الطويلة الفخمة البالغ طولها الى مكان الأذان ٥٤ ذراعاً ، والى اعلى الرمانة الاخيرة ٧٣ ذراعاً ، وعرضها في كل تربيع ١٨ ذراعاً .

٢ — بمحرابه المصنوعة جدرانه من الفسيفساء المموهة بالذهب .

٣ — بابوابه التسعة المصفحة بالنحاس الاصفر .

٤ — بباب مقصورته المصفح بالذهب الخالص .

٥ — بسقفه القائم على ١٢٩٣ سارية من الرخام والمعلقة فيه الثريات العديدة المصابيح واشهرها « التنور النحاسي » الذي كان يحمل الف مصباح .

دور العرب وقصورهم في بغداد

ومن القصور التي تتجلّى فيها فخامة العمران في عاصمة الرشيد : « قصر التاج » الذي شيده المعتضد بالله في الجانب الشرقي من بغداد . و « قصر الثريا » البالغ طوله كما قيل حوالى ثلاثة فراسخ . وقد روى المسعودي انه انفق على بنائه اربعماية الف دينار . وقد وصله المعتضد بالله بقصرٍ آخر يملكه بسردابٍ طوله ميلان كانت تتنزه فيه جواريه وغوانيه . ووصف ابن المعتز قصر الثريا بقوله :

سلمتَ أمير المؤمنين من الدهرِ
فلا زلت فينا باقياً واسع العمرِ

حللتَ الثريا خير دارٍ ومنزلٍ
فلا زال معموراً وبورك من قصرِ

جنان واشجارٌ تلاقت غصونها ،
واورقنَ بالاثمار والورق الخضرِ

ترى الطير في اغصانهنّ هواتفاً
تَنَقَّلُ من وكرٍ لهنّ الى وكرِ

وبنيان قصرٍ قد علت شرفاتُهُ
كمثل نساء قد تربعنَ في أُزرِ

وانهار ماء كالسلاسل فُجِّرت
لترضع اولاد الرياحين والزهر

اما القصر الذي تاهت به بغداد على معظم العواصم الاوروبية وقد جاء وصفهُ في معجم ياقوت فكان يسمّى : « دار الشجرة » شيّده المقتدر بالله بن المعتضد ، فهو قصر منيف اشتهر بقاعةٍ كان فيها شجرة مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة لها ثانية عشر غصناً من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بانواع الجواهر على شكل الاثمار . وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة اذا مرّ الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير . وفي جانب الدار عن يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً ومثلها عن يسار البركة قد لبسوا انواع الحرير مقلدين بالسيوف وفي ايديهم المطارد « الرماح » يتحركون على خطٍّ واحد فيظن الناظر اليهم ان كل واحد منهم يقصد صاحبه .

ثم « دار المعزية » وهو القصر المشهور الذي اقامه معز الدولة من آل بويه عندما صار الحكم اليهم . فقد انفق على

هذه الدار ما لا يقل عن مليون من الدنانير واشتهرت بسقوفها المموهة بالذهب .

اما اليوم فلم يبقَ في بغداد اثر لهذه القصور لانها لم تكن مبنية بالحجارة الصلبة كما في مصر والشام والاندلس بل كانت مشيدة بالطوب اي الطين المشوي .

دورهم في مصر

ومن آثار الفاطميين في مصر القصر الذي بناه احمد بن طولون «في القطائع» والذي هو مفخرة من مفاخر الفن العربي .

وقد اشتهر هذا القصر بميدانه الفسيح الذي جعله خمارويه ابن احمد بن طولون جنة عامرة بانواع الاشجار المثمرة والرياحين والزهور واصناف النخيل .

قصور العرب وحصونهم في الاندلس

ان ما تفنّن به ملوك الأندلس في بناء القصور والحصون وما غالوا في زخرفتها واتقان فنّها لهو أثرٌ خالد وآيةٌ من الآيات التي كان يتهافت الناس من جميع أقطار الارض على زيارتها ومشاهدة ما ابتكرته المخيلة العربية من فنٍّ لا يزال موضوع اعجاب الفنانين الكبار .

فشيّد بنو أُميّة فيها قصوراً ومساجد عظيمة اشهرها « القصر الكبير » الذي شيّدهُ مؤسس الدولة الاموية في قرطبة عبد الرحمن الداخل المعروف « بصقر قريش » في أواسط القرن الثاني للهجرة واتمّه من بعده خلفاؤه وبنوا فيه أكثر من اربعمائة دار . وذكر المقري صاحب كتاب نفح الطيب ان الخلفاء بالغوا في زخرفة هذه الدور وانشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض ، وجلبوا اليها الماء في أقنية من رصاص على مسافة بعيدة من الجبال حتى أوصلوه اليها ووزعوه فيها وفي ساحاتها ونواحيها تؤدي الى المصانع صوراً مختلفة الأشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموّه الى البحيرات

الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في احواض الرخام الرومية المنقوشة ينصبُّ فيها الماء من أنابيب الذهب او الفضة بصور الحيوانات الكاسرة أو الصور الجميلة على أشكال بديعة . وكان هذا القصر الكبير يحتوي على قصور صغيرة أشهرها الكامل والرستق والبديع والمعشوق والمبارك والمجدد والمأمون . وقد شاهد امجاد بني مروان وانتصاراتهم في المغرب كما أقيمت في ساحاته وميادينه الاستعراضات الهائلة للجيوش العربية وشبابها الناهض . ثم « القصر الزاهر » الذي بناهُ ايضاً عبد الرحمن الداخل على نهر قرطبة باكمل الاتقان والفخامة وجعل امامهُ « البهو الكامل » الجميل .

القصر الزاهر : وهو من اجمل ابنية القصر الكبير . لهُ واجهة عليها نقوش كالوشم على المعصم في اشكال جميلة بين اقواس منحوتة باشكال هندسية عربية تتخللها الأبواب في الاسفل وتزينها في الطبقة العليا النوافذ والاحنية والقناطر كالرواق القائم على اساطين الرخام وعلى تيجانها نقوش وكتابة . وفوق التيجان الاقواس قد تقطعت سقوفها مربعات متداخلة ورسمت فيها الآيات والدعوات حفراً او تصويراً . وعلى افاريز الشبابيك ابيات من الشعر مذهبة . والافاريز من الشكل المقرنص . وتنتهي تلك الطبقة بطنف بارز هو امتداد السطح الى الخارج وعليه نقوش

في غاية الجمال، وحول النوافذ زجاج ملون مصنوع على اشكال هندسية في اجمل زينة .

و « قصر الناعورة » غربي قرطبة و « قصر الروضة » اللذان بناهما عبد الرحمن الناصر وجلب اليهما الماء من الجبل واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوقفوا عليه . ثم اخذ في بناء المتنزهات فاتخذ ميناء الناعورة خارج القصور وساق لها الماء من اعلى الجبل على بعد المسافة وجرها في اقنية غريبة الصنعة . وقد وصفها المقري في كتاب نفح الطيب فقال : « واكمل الناصر بنيان القناة الغريبة الصنعة التي اجراها وجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة في المناهر المهندسة (وهي خروق في الحصن نافذة تجري منها المياه) وعلى الحنايا المعقودة يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة من جبل قرطبة الى قصر الناعورة ويصبُّ في بركة عظيمة عليها اسد عظيم الصورة بديع الصنعة شديد الروعة لم يشاهد ابهى منه في ما صوَّر الملوك في غابر الدهر ، مطلي بذهب ابريز ، وعيناه جوهرتان لهما وبيصٌ شديد يجوز الماء الى عجز هذا الاسد فيصبهُ في تلك البركة من فيه فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره فتستقي من مجاجه جنات القصر على رحبها ويستفيض على ساحاته وجناته ويمدُّ النهر العظيم بما فضل منه ، فكانت هذه القناة وبركتها والتمثال الذي

يصب فيها من اعظم آثار الملوك لبعد مسافتها واختلاف مسالكها وفخامة بنيانها وسمو ابراجها التي يرقى الماء منها وينصبُّ من اعاليها . »

و « قصر الزهراء » الشهير الذي شيده ايضاً الملك الناصر بمدينة الزهراء بالاندلس على بعد اربعة اميال وثلث من قرطبة . وكان متناهياً في الجلالة والفخامة والرواء، يقولون انه لم يدخل اليه احد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة الاّ وكلهم قطع انهُ لم يرَ لهُ شبيهاً بل لم يسمع به بل لم يتوهم انه كُوّن مثلهُ حتى انه كان من اعجب ما يؤمل القاطع الى الاندلس في تلك العصور النظر اليه والتحدث عنه . وكانت مجالسهُ مبلطة بافخر انواع الرخام وسقوفها مغشّاة بالذهب الابريز وابوابها من خشب الارز منقوشاً نقشاً يحيّر الالباب، وعُمدُها غاية في الاحكام والاتقان كأنها أُفرغت في قوالب . وكان بها برك عظيمة يجري منها الماء الصافي الى ابدان تماثيل غريبة الشكل والصنعة تكاد المخيلة تعجز عن تصوّرها . وحمل اليها الرخام من اقطار الغرب وأُدخل فيها ٤٣٠٠ سارية . واهدى ملك الفرنج ٤٠ سارية رخام . واما الوردي والاخضر فقد جلب من افريقية، والحوض المذهب جلب اليها من القسطنطينية .

وأشرف هذه المجالس وابهاها المجلس الذي كان يسمى :

« قصر الخلافة » وصفه المقريزي فقال : وكان سقفه من الذهب والرخام الغليظ الصافي لونه المتنوعة اجناسه ، وكانت حيطان هذا المجلس مثل ذلك . وجُعلت في وسطه البتيمة التي اتحف الناصر بها لاون ملك القسطنطينية . وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة وفي وسطه بركة عظيمة مملوءة بالزئبق . وكان في كل جانب من المجلس ثمانية ابواب قد انعقدت على حنايا من العاج والابنوس المرصّع بالذهب واصناف الجواهر قامت على سوارٍ من الرخام الملوّن والبلور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الابواب فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نورٌ يأخذ الابصار . وكان الناصر اذا اراد ان يفزّع احداً من اهل مجلسه اومأ الى احد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيظهر في المجلس كلمعان البرق من النور ويأخذ بمجامع القلوب حتى يخيّل لكل من في المجلس ان المحفل قد طار بهم ما دام الزئبق يتحرك .

و « قصر الشراحيب » الذي كان مبنياً في مدينة شلب من معاملة قرطبة . وكان قصراً مشهوراً وفيه يقول المعتمد بن عبّاد الاندلسي :

وسلّمْ على قصر الشراحيب عن فتىً
لهُ ابداً شوقٌ الى ذلك القصرِ

و « قصر السرور ومجلس الذهب » بُنيا في مدينة سرقسطة وفيهما يقول ابن هود :

قصر السرور ومجلس الذهبِ
بكما بلغتُ نهـــاية الطربِ

و « قصر طليطلة » المشـــهور شادهُ المأمون بن ذي النون بمدينة طليطلة وجلب لهُ اهل الصناعـة والمهندسين والمصورين . وصنع في وسطهِ بحيرة . وفي وسط البحيرة قبـة من زجاج ملون منقوش بالذهب . وجلب الماء على رأس القبة فكان الماء ينزل من اعلى القبة على جوانبها محيطاً بها ويتصل بعضهُ ببعض فكانت قبة الزجاج في غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجري والمأمون قاعد فيها لا يمسُّهُ من المـاء شيءٌ ولا يصلهُ . وتوقد فيهـا الشموع فيرى لذلك منظر بديع . وفيـهِ قال ابو محمد البصري :

شمسيَّـــةُ الانساب بدريَّةٌ
يحارُ في تشبيهها الخاطرُ

كأنما المأمون بـدر الدجى
وهي عليـهِ الفلك الدائرُ

و « قصر الحمراء او القلعـة الحمراء » الذي شيَّدهُ ابن

الاحمر سنة ١٢٤٨ م وقد احتفظ به الزمن للعرب . فهو لا يزال كعبةً للفن العربي يحجُّ إليه الاثريون من كل صوب ليشاهدوا حوض السباع المشيَّد في وسطه تماثيل اسود تقذف المياه من افواهها .

فهذا الحصن يشرف على مدينة غرناطة بهيبةٍ وجلال . وهو محصَّن على اقوى منوال . أنشئ في القرون المتوسطة . يسع ٤٠ الف رجل . داخله آثار قصر مغربي عربي وهو محاط باشجار وحدائق . وتلك البقعة الجميلة تتضمن كل ما كان يحتاج اليه امراء غرناطة من اسباب الامان والحظ .

وفي الحمراء داران معتبرتان احداهما دار الاسود وهي دائرة عظيمة من القصر سمّيت بذلك من عينٍ قائمة على ١٢ اسداً من المرمر وهي بتمامها مبنية من الرخام والمرمر ومزينة باحسن انواع الزينة .

والثانية دار ابن سراج وهي اجمل منها وسقفها من خشب الارز مرصع بالعاج والصدف والفضة . والحيطان مزينة باجمل الزينة ومزخرفة على احسن طريقة . والوانها لا تزال على حالتها اللامعة الاصلية . والنقوش لا تزال كاملة بعد ان مضى عليها اكثر من ٥٠٠ سنة .

وحول هاتين الدارين قاعات فاخرة مزينة بالاساطين والمنازل

ذات الطراوة والحدائق اللطيفة والماء العذب الجاري . وفي الواجهة الخارجية طُنِّف بديعة تطلُّ على البرية . وفي احدى الدور العظمى قاعة جليلة تعلوها قبة . وكل حيطان القلعة الداخلية مزينة بالنقوش والفسيفساء .

والقباب مصنوعة على هيئة نخاريب النحل . واما الخارجية فمنظرها حربي وليس فيها النظام الهندسي القديم . وفيها ايضاً صور تشخص الصيد والحيوانات .

لكن بعد فتح ملوك قسطيلة لغرناطة حصل بالقصر على التوالي تشعث في اماكن مختلفة منه . وقد جعل كارلوس الخامس بعض اقسام هذه القلعة الاصلية على نسق حديث لكي يتخذها منزلاً له .

ونهبها فيما بعد حكام مختلفون . وهدم الفرنسيون ثمانية من ابراجها وقد حاولوا دكها جميعها الى اساساتها . وهي الآن متخذة حصناً بعد ان كانت مقاماً للملوك . محيطها نحو ثلاثة ارباع الفرسخ . وسورها الاصلي باقٍ الى الآن ، وعليه الابراج .

وهناك ايضاً مع القلعة كنيسة داخل السور ودير قديم اتخذ الآن منزلاً للعساكر وعدة من المساكن .

وقصر ابتدأ ببنائه شارلكان في موقع قصر الشتاء أيام المغاربة ، فانه هدمه وامر ببناء هذا القصر مكانه . وهذا المحل لم يتم وهو

الآن محل للاسلحة والمدافع .

وبعض الابراج والمعلات القديمة قد اتُخذت سجوناً وبيوت تصليحات وغير ذلك . ولا تزال هذه القلعة اثراً مؤثراً يذكّر المؤرخين بحوادث الاندلس ونكبات عربها . وفي الحمراء يقول الرُعيني :

رعى الله بالحمراء عيشاً قطعتُـهُ
ذهبتُ به الانس والليل قد ذهَبْ

ترى الارض منها فضة فاذا اكتست
بشمس الضحى صارت سبيكتها ذهبْ

سور قرطبة وجسر نهرها الفخيم : ويحيط بهذه القصور سورٌ له بضعة ابواب ، منها بابان في الجنوب يطلان على النهر هما باب الجنان والسطح ، وواحد في الشمال اسمهُ باب قورية وآخر في الشرق هو باب الجامع . والاخير في الغرب ويقال له باب الوادي .

وفوق النهر جسر فخم « كوبري » يصل بين قرطبة وارباضها الجنوبية ويقال له قنطرة قرطبة طولهُ ٨٠٠ ذراع وعرضه عشرون ذراعاً وارتفاعهُ ٦٠ ذراعاً وعدد قناطره ١٨ قنطرة . وفوقه ابراج

عددها ١٩ برجاً، وهو يُعدُّ من مفاخر قرطبة ولا يزال الى اليوم من آثارها الفخمة .

مسجد قرطبة : ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير. ولم يكن في بلاد الاسلام اعظم منه ولا اعجب بناءً . وكان في مكانه كنيسة للنصارى شاطرهم عليها المسلمون عند الفتح كما فعلوا بالجامع الاموي بدمشق ثم أخذوا بتوسيعه والزيادة فيه حتى بلغت سعته في ايام الناصر ٢٢٥ ذراعاً في ٢٠٥ اذرع .

واغرب ما فيه المئذنة ، لم يكن في مساجد المسلمين مئذنة تعدلها ، طولها الى موقف المؤذن ٥٤ ذراعاً والى اعلى الرمانة ٧٣ ذراعاً وعرضها ١٨ ذراعاً .

مكتبة قرطبة : كانت قرطبة في أوج مجدها . واقتناء الكتب فيها من لوازم الرخاء بل هي كالاثاث لا يستغنى عنها في بيت من البيوت . لان الخليفة نفسه كان محبّاً للعلم مقرّباً للعلماء . وشبَّ اولاده على ذلك وخصوصاً الحكم ولي العهد واخوه عبد الله واقتدى بهم سائر أهل الدولة .

وهذه المكتبة انشأها سعيد الوراق[1] في الرُبُض خارج

---

١ سعيد الوراق كان صحيح البنية، خفيف العارضين واللحية ، عريض الكتفين، قوي العُضُل ، كبير الدماغ ، تتجلى الرزانة في جبينه والذكاء في عينيه فان فيهما قوة الاقناع، وقد مضى عليه بضع سنين يشتغل بالوراقة في قرطبة او يتجر بالكتب.

قرطبة في بيتٍ على ضفة الوادي الكبير «نهر قرطبة» فهي تطل على قرطبة عن بعد وبينهما النهر . وهي بيت أشبه بنادي مطالعة منه بمستودع كتب او دار نسخ . فكان ادباء قرطبة من الفقهاء وأهل الدولة يترافدون اليها للمطالعة والشراء او النسخ . وكان يشترط ان يكون ذلك في النهار ، فاذا غربت الشمس أُقفل الباب .

obeikandl.com

المدن التي انشأها العرب

في الجاهلية والاسلام

ان اقدم واشهر المدن التي شيّدها العرب في زمني الجاهلية والاسلام والتي انفقوا في سبيل عمرانها الاموال الطائلة هي :

« القرية[1] » في اليمامة والحِجر[2] ومدينة مأرب او سبأ وعين شمس « مصر الجديدة » والحيرة في العراق وجبلة الادهمية[3].

اما المدن التي انشأوها في العصر الاسلامي بالمشرق فأول

---

١ القرية هي حاضرة طسم وجديس ، فيها آثارهم وحصونهم وبنائهم (الواحد بتيل وهو بناء مربع مثل الصومعة مستطيل في السماء من طين . وقد رآه المسلمون في القرن الثالث والرابع . وذكر احدهم انه ادرك بتيلاً طوله خمسمائة ذراع . ولعل زرقاء اليمامة نظرت جيش تبع من احدها . كذا قال الهمذاني) .

٢ الحِجر لطسم وجديس ، فيها آثار جليلة . والهجر بلغة أهل اليمن القرية . فلعل حجراً والقرية من اصل واحد . كذا روى ياقوت .

٣ بلدة بناها جبلة بن الايهم آخر ملوك غسان الذي كان اسلم في ايام الخليفة عمر بن الخطاب ثم لحق بقيصر ملك الروم فتنصر واقام عنده وبه يضرب المثل في عزة الملك فيقال اعز ملكاً من جبلة بن الايهم . وجبلة هـــذه بين طرطوس واللاذقية تنسب الى السلطان ابراهيم ادهم الزاهد المدفون فيها .

مدينة بناها المسلمون في زمن عمر بن الخطاب كانت البصرة . ومدينة الكوفة التي مصّرها سعد بن أبي وقّاص احد الصحابة في زمن خلافة عمر المذكور. ومدينة « واسط » التي بناها الحجاج ابن يوسف الثقفي في ايام خلافة عبد الملك بن مروان وسماها بهذا الاسم لتوسطها بين البصرة والكوفة . ومدينة « بغداد » التي بناها أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي وبنى في جانبها الشرقي « الرصافة » الشهيرة لولده المهدي. ومدينة سُرّ من رأى « سامرّا » وقطربل والمدائن . ناهيك عن الخانات التي كانت مجتمع الصنائع . والحمامات التي بلغ عددها على عهد المأمون ابن الرشيد في بغداد فقط ٦٥ الف حمام .

ومن اشهر المدن التي انشأها المسلمون في الاندلس من بلاد المغرب مدينة « الزهراء » اعجوبة زمانها وفريدة هذه الايام لو بقيت . فهذه اختطها الملك الناصر بعد ان اكمل ابنيته بمدينة غرناطة . واتخذها منزلهُ وكرسياً لهُ . وانشأ فيها من القصور والمباني والبساتين ما علا على مباني اجداده . واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة البناء ومسارح للطيور مظللة بالشباك . واتخذ فيها دار الصناعة وآلات للسلاح والحرب والحلى للزينة وغير ذلك من المهن .

قال بعض المؤرخين : كان الناصر كلفاً بعمارة الارض وتخليد

الآثار الدالة على قوة الملك، فاستقام السلم والعدل في ايامه واتسع نطاق الحضارة وامتد العمران وراجت سوق الزراعة والتجارة ففاضت على الاندلس ينابيع النعم. وكان السبب في بنائه هذه المدينة جارية كانت له تسمّى الزهراء وكان يحبها حباً شديداً فطلبت منه ان يبني مدينةً باسمها تكون خاصة لها، فبنى اولاً قصر الزهراء المار ذكرهُ ثم بنى الزهراء حولهُ على بعد ما بين اربعة وخمسة اميال من قرطبة، والى الشمال منها تحت جبل يسمّى جبل العروس. وقطع اشجار الجبل وغرسهُ تيناً ولوزاً. ولم يكن منظرٌ احسن من منظر الزهراء ولا سيما في زمن الازهار وتفتّح الاشجار. وكان طولها على قول ابن خلكان الفين وسبعماية ذراع من الشرق والغرب، وعرضها الفاً وخمسماية ذراع من الشمال الى الجنوب. ونصب فيها ثلاث مئة سارية من الرخام السفيس وجعل بها اكثر من خمسة عشر الف باب ملبسة بالحديد والنحاس المموّه. وقال ابن حيّان نقلاً عن ابن وجون الفقيه مسلمة بن عبد الله العريف المهندس العربي الشهير: وكان مبلغ ما ينفق في الزهراء كل يوم الفاً واربعماية بغل. ومن دواب الاكرية الراتبة للخدمة الف بغل. وكان يرد الى الزهراء من الجير والجص في كل ثالث من الايام الف ومئة حمل.

وقدر بعضهم النفقة فيها كل عام بثلاث مئة الف دينار مدة خمسة وعشرين عاماً . وبقي بناؤها اربعين عاماً . اما رخامها ورخام السواري فبعث عرفاء بنّائيه الى سائر الآفاق يجلبونه له . فجلبوا الابيض والمجزّع من الاندلس ، والوردي والاخضر من افريقية من اسفاقس وقرطاجنة . ونصب بها حوضاً منقوشاً مذهباً غريب الشكل غالي القيمة جلبه اليه احمد اليوناني من القسطنطينية . وحوضاً صغيراً اخضر منقوشاً بتماثيل الانسان جلبه من الشام . قال المقري : ونصبه الناصر في بيت المنام في مجلسه الشرقي المعروف « بالمؤنس » وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الاحمر مرصعة بالدرّ النفيس الغالي مما عُمل بدار الصناعة في قرطبة بصورة اسد الى جانبه غزال والى جانبه تمساح وفي مقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكل ذلك من ذهب مرصّع بالجوهر النفيس ، ويخرج الماء من افواهها .

المدن التي انشأها المسلمون بافريقية

في ايام الخلافة الفاطمية بافريقية ظهر رجل من ذرية الحسين ابن علي بن ابي طالب يقال لهُ عبيد الله . فهذا أخذ وحبس في خلافة المعتضد بالله العباسي ثم أُخرج من محبسه « بدعوى انهُ هو المهدي الذي سيتسلم الحكم بعد احفاد السفاح العباسي » ومن ثم تكنى هذا الاسير بأبي محمد وتلقب بالمهدي فتبعهُ مسلمو المغرب فاطبةً . فاسس خلافة جديدة للعلويين في بلاد افريقية كان هو اول خلفائها وذلك سنة ٢٩٧ هـ « ٩٠٩ م » وجعل هذا الخليفة دار اقامته اولاً بمدينة يقال لها رقّادة وهي بالقرب من مدينة مستحدثة يقال لها القيروان . وقوي امر هذه الدولة بالمغرب وافريقية وجهروا بمذهب الاسماعيلية وامتلكوا ارض مصر مدة طويلة ، فكان اول مشروعات المهدي المذكور بناء مدينة في القيروان سماها « المهديّة » نسبةً له . واختار لهذه المدينة جزيرة متصلة بالبر كصورة كف اتصلت بزند وجعلها دار ملكه واحاط بها سوراً محكماً وجعل لها ابواباً من الحديد وزن كل مصراع منه قنطار .

وكان شروعه في بنائها سنة ٣٠٣ هـ « ٩١٥ م » وانشأ بالقرب منها في الجبل داراً لانشاء السفن تسع مئة سفين . وأقام في ارضها اهراء للطعام ومصانع للماء ، وبنى فيها القصور والدور ، ودوّن الدواوين ، وجبى الاموال ، وبعث العمال الى البلاد . ثم بنى مدينة اخرى في ارض بني كملان من هوارة وكان اسمها المسيلة فسمّاها « المحمدية » وحصّنها وجعلها مخزناً للاقوات .

ثم لما استولى حفيده المعز لدين الله على بلاد مصر بعد موت كافور الاخشيدي شرع وزيره جوهر ببناء « قاهرة مصر » واسس مدرستها الكبرى الشهيرة بالجامع الازهر فنقل اليها المعز لدين الله المذكور ما كان في قصره بالمهدية من الاموال والامتعة وسار اليها بعد الشروع في بنائها باربع سنوات واتخذها منزلاً له ولخلفائه الى آخر دولتهم .

ثم لما تولى سلطنتها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب تحت الراية العباسية بنى فيها قلعة « الجبل » والبئر المشهورة بها المعروفة ببئر يوسف وعمقها ثلاث مئة قدم ومع ذلك يمكن النزول اليها ولو لمن نزل راكباً على حمار لما فيها من الدرج الدوار .

سلطنة مراكش : وبعد ان انقرضت دولة الفاطميين

استقلت عمال البلاد في اقسام هذه المملكة . فكانت مصر نصيباً للسلطان صلاح الدين الايوبي ، وكذلك بلاد افريقية استقلت بها عمالها ولم يفقد منها الا الجزائر التي استولى عليها الفرنسيون .

اما بلاد مراكش فتطلق عليها العرب اسم سلطنة المغرب . وكانت الرئاسة فيهم لقبيلة يقال لها « لمتونة » استولوا على عدة مواقع من بلاد السودان الى ان صار لهم مملكة واسعة وتعاظم امرهم على عهد عبد الرحمن الناصر بالاندلس وعبيد الله المهدي بافريقية . ثم خرجت طائفة من قبيلة لمتونة وهجمت على جماعة من اعدائها فخالفها العدو الى بيوتها ، ولم يكن باقياً بهـــا الا المشايخ والصبيـــان ، فامروا النساء ان يلبسن ثياب الرجال ويتلثّمن ويحملن السلاح ففعلن ذلك . وسموا من ذلك الوقت « بالملثمين » . ولما استقحل ملكهم قام بالملك عليهم رجل من امرائهم يقال لهُ يوسف بن تاشفين اللمتوني وسمى نفسهُ امير المسلمين .

مراكش : فاختطّ هذا الامير مدينة في بلاد افريقيـــة سنة ٤٥٤ هـ « ١٠٦٢م » وهو انهُ ادار سوراً على مسجد وقرية صغيرة ليجعلها مخزناً لامواله وسلاحه ، وكانت تلك القرية في غابة من الشجر تأوي اليها اللصوص قبل ذلك ، فكان سكان تلك البلاد عندما يمرون بها يقول بعضهم لبعض : مرّا كش ، ومعنى ذلك

في لغتهم « امش مسرعاً »، فصار هذا اسماً لذلك الموضع وبه تسمت تلك المدينة .

واستمرت هذه المدينة كرسي مملكة للملثمين الى ان زالت دولتهم وقام بعدها حكام غيرهم الى يومنا هذا .

ويلي مدينة مراكش مدينة « مغادور » وهي فرضة عظيمة.

ومدينة « مكناسة » ويقال لها مكناسة الزيتون، وهي على نهر فلفل يقيم بها سلاطين مراكش غالب اوقاتهم . وفيها يقول بعض الشعراء :

انظر الى مكناسة الزيتونِ
بين الاباطح والجبال الجونِ

وكأنّ فلفل بينهنّ مهنّدٌ
يهتزّ بين تعطّفٍ وسكونِ

حضارة العرب في صنائعهم

ازدهرت الصناعة في عهد العرب حتى لقبت مدن وقرى عديدة بالنسيج الذي كانت تخرجهُ ببسطها الجميلة واكسيتها الجيدة . واشتهرت مدينة بعلبك بصناعة الثياب والاحرام والمشدات . ودمشق بصنع الخميصة والبرنسكات والاقمشة المزركشة بالقصب والتي لا يزال الاوروبيون يدعونها حتى الساعة « بالدامسكو » .

ومما اشتهر به العرب في صنائعهم ومهنهم :

١ — صناعة السكر التي نقلوها من الهند الى امبراطوريتهم فابتنوا لها المصانع الاولى واسسوا المعامل الكبيرة فتفننوا في اصنافهِ واستخضروا منها الواناً كثيرة .

٢ — صناعة الورق . وقد اتقنها صناع العرب كثيراً واخذها عنهم الاوروبيون .

٣ — صناعة الزجاج التي كان الحكيم عباس بن فرناس من اوائل العرب في استنباطها . وعرفتها بعض مدن اسبانيا كما عرفت بمصانع الوشي المذهب .

٤ — معامل الفسيفساء التي انشأتها العرب لتزين بها دورها ومساجدها ومدارسها العامة .

٥ — صياغة الذهب والفضة ، وتنزيلهما على السيوف والخناجر والمدى . واشتهرت سوريا بعمل الاسلحة في جميع مشارفها ولهذا دعوا السيوف الدمشقية بالمشرفيات .

٦ — مصانع البارود التي نقل عنهم الاوروبيون صناعتها .

٧ — مصانع الساعات . ولعل ساعة الجامع الاموي في دمشق كانت نموذجاً لها . وقد وصفها ابن جبير وصفاً شائقاً .

٨ — مصانع البكر والأكر والانابيب وبعض آلات الجر والرفع التي امتاز العرب فيها ، وغيرها كثير من الصنائع التي اخذها الاوروبيون عن العرب .

فهؤلاء العرب العصاميون الذين نبغوا في ضروب الصناعات فبلغوا فيها قمة المجد بجذاقتهم واجتهادهم قد خلّد لهم التاريخ اجمل صفحة عن حضارتهم ورقيهم .